بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا إلى نعمة الإسلام والإيمان ، والحق والبيان ، وأرشدنا إلى دلائل اليقين والبرهان ، وصلى الله على سيدنا محمد الصادق الأمين الذي أُعْطِيَ جوامع الكلم وهدانا إلى الطريق المستقيم ، طريق الحكمة والهداية واليقين ﷺ .

إن الحقيقة المؤكدة هي أن العالم الآن شماله وجنوبه ، شرقه وغربه يعاني ويلات التشدد والتطرف في المعتقد والفكر نتيجة تعدد واختلاف المذاهب والفرق الإسلامية ، كما يعاني الفقر والجهل والتعصب والقلق والأنانية وحب الذات والخوف من المصير المجهول ، كما يعاني في نفس الوقت آثار الجهل والتخلف ومشاعر القهر والظلم والتمييز العنصريالذي أورثه الغرب لدى دول وشعوب الشرق والجنوب ، ومحاولة الغرب تبنِّي سياسة القهر والتشدد والسيطرة والاستغلال لدول العالم الفقيرة والغنية على السواء ، وتبنِّي الغرب لسياسة التفريق والتجزيء لدول الشرق والعالم الثالث ، وسياسة التبنِّي والاحتواء لكل منحرف في الفكر والرأي ، وكل معارض مخالف لسياسة دولته وإعانته على الثورة من أجل تحقيق عالم الفوضى والانشقاق والحروب الأهلية والداخلية لتحقيق أهداف الغرب وسياسته .

وهذه الدراسة تعرض لمختلف أشكال هذا التعصب والتشدد وأسبابه من خلال علم الكلام بوصفه العلم الذي تخصص في بحث تاريخ ومواقف المذاهب والفرق الإسلامية والمبادئ التي وضعتها كل فرقة لمذهبها وكانت سببا في

تطرفها وخروجها في كثير من الأحيان عن مبادئ وأصول الإسلام المقررة في الشرع ، وكيف كانت الأغراض السياسية والرغبة في السلطة وراء العديد من المواقف المتشددة لفرق الخوارج والشيعة وأتباعهم ، والتي زرعت الحقد والكراهية لدرجة تكفير المخالفين لهم واستباحة دمائهم والدعوة لقتالهم ، كما كفَّروا المخالفين لمذاهبهم ومرتكبي الكبائر والذنوب ، مما دعا الإمام علي بن أبي طالب وكبار الصحابة ورجال الفكر من الفقهاء والفلاسفة الأوائل من معارضتهم ومحاولة تصحيح أفكارهم الخاطئة ، وكان الإمام علي ابن أبي طالب أول من تحمل مسئولية مواجهة أصحاب الآراء المتشددة من الخوارج ومن الشيعة على السواء بالمناظرة أحيانا وببعث الرسائل التحذيرية لهم أحيانا أخرى ، ومما قاله لهم : أما بعد : فمن ترك الجهاد وداهن في أمر الله ، كان على شفا هلكة إلا أن يتداركه الله برحمته ، فاتقوا الله عباد الله وقاتلوا من حاد الله وحاول أن يطفئ نور الله ، قاتلوا الخاطئين القاتلين لأولياء الله المحرفين لدين الله ، الذين ليسوا بقراء للكتاب ولا فقهاء للدين ولا علماء بالتأويل ولا لهذا الأمر بأهل في دين ولا سابقة في الإسلام ، كما سجلت كتب التاريخ والفرق مناظرات الإمام علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس للخوارج ، وكذلك مناظرات كبار علماء الكلام من المعتزلة والأشاعرة ، وهي المناظرات التي عرضناها تفصيلا في الباب الرابع من هذا الكتاب .

ولا شك في أن هذه الدراسة أحد المحاولات الجادة لفهم التراث بمنظور العقل والمنطق والإجابة على السؤال الهام : لماذا علم الكلام الآن ؟ وهل نحن بالفعل في حاجة لمراجعة تراثنا ومواجهة ذواتنا والاستفادة من هذا العلم الذي يتناول تاريخ وأسباب ظهور الفرق والمذاهب ؟ ، وكيف يتحقق ذلك ؟ وهل وقوفنا عند التراث وآراء أصحاب المذاهب والفرق بكاف للتصحيح والمواجهة والحل ؟

وفي هذه الدراسة كان من الضروري التأكيد على أهمية استخدام المنهج التحليلي النقدي المقارن الذي يتميز بالموضوعية والحيادية عند عرض وتقييم آراء الفرق والمذاهب من خلال معايشة واقع هذه الفرق وتحليل دوافعها وآرائها الحقيقية ومبادئها التي تميزها ، وليس من خلال آراء خصومهم ، فذلك هو المنهج المناسب لتحليل أصول الفرق ومبادئها ونقد المخالف منها وتصحيح بعض الأفكار والآراء الخاطئة التي شاعت حول علماء الكلام وفلاسفة الإسلام وبعض الفرق والمذاهب ، وكان وراءها في كثير من الأحيان أغراضا مذهبية أو سياسية ، وإثبات أن الدين ليس في حاجة إلى من يدافع عنه بل في حاجة إلى الفهم والالتزام والتطبيق وذلك بالتأكيد على بعض الحقائق المؤكدة تاريخيا منها :

- أن الخلاف والتصارع بين البشر سنة كونية لاختلاف قدرات البشر واختلاف الوسائل والغايات واختلاف الفهوم والآراء وتعارض الأهواء والولاءات ، ومن ثَمَّ كان الخلاف والاختلاف بين الفرق والمذاهب وبين الفلاسفة والفقهاء وعلماء الكلام ، بل وكل فرقة وأخرى وداخل كل فرقة ومذهب ، ومن ثَمَّ كثر الخلاف والافتراق بين أصحاب الفرق والمذاهب خاصة بين هؤلاء الذين فهموا الدين فهما خاطئا وجردوه من جوهره وحقيقته وجعلوا الدين أداة لخدمة أغراضهم وأهوائهم وأهدافهم ، وأضروا بالإسلام والإيمان ضررا بالغا باجتهاداتهم الخاطئة وآرائهم الفاسدة والتي كانت سببا مباشرا في كثرة الخلاف واشتداد العداءات والتطرف بينهم فخرجوا عن صحيح الدين وأساءوا إليه وإلى أصحابه وإلى أنفسهم كذلك .

من أجل ذلك كانت غاية البحث في علم الكلام والفرق هو التقريب بين آراء ومذاهب المتكلمين ، وإثبات أن الاتحاد ونبذ الخلاف والافتراق ليس بالأمر المستحيل خاصة وأن الله جل وعلا قد أمرنا بمجادلة المخالفين بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما أمرنا بالفهم والتدبر والتعقل والاعتصام

والوحدة وعدم التقاتل والخلاف ، ذلك الخلاف الذي يرجع في الأساس إلى حب الغلبة وحب الدنيا والتغالب على السلطة والجهل بصحيح الدين ، وهو الاختلاف الذي حذرنا منه الحق تعالى فقال: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ ﴾(آل عمران:١٠٥)،وقال تعالى:﴿ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ (البقرة:١٩٠)، وقال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الأنفال:٤٦). وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ (آل عمران:١٩) . في إشارة إلى أن الدين واحد وليس فيه فرق أو مذاهب أو جماعات . وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (الأنعام:١٥٣) . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:٩٢).

ومع كل هذه التحذيرات فقد كان الخلاف بين الفرق والمذاهب في الأمور الاعتقادية أمرا طبيعيا ومطلوبا ، أما الاختلاف من أجل السلطة والسيادة والمذهب فلم يأمر به الدين لأنه جعلهم يتشددون ويتطرفون ويخرجون عن أصول الإسلام ومبادئه المقررة في الشرع ، وجعلهم يكفرون بعضهم بعضا ويقاتل بعضهم بعضا .

- أن فلاسفة الإسلام وعلماء الكلام وأصحاب الفرق والمذاهب لم يختلفوا قط حول أصل من أصول الإسلام المقررة في الشرع ، إذ لم ينكر أحد منهم الإيمان بوحدانية الله أو رسوله ﷺ ، ولم ينكر أحدا منهم ركنا من أركان الإيمان أو أصل من أصول الإسلام ، إنما كان الخلاف في الرأي والفهم والتأويل أو في فروع الدين أو في المنهج الموصل للحق واليقين ، أو في الهدف الذي يسعون لتحقيقه ، وفي أداة الحكم واليقين وهل هي العقل أم الشرع وأيهما له السبق على الآخر ، ومعنى ذلك أن التقريب بين الآراء والمذاهب والفرق ممكن وليس بالمستحيل خاصة إذا خلصت النوايا

وصلحت الضمائر ورجع كل منهم إلى رشده وصوابه ، وشعر كل منهم بالمسئولية تجاه الحق والشرع والإنسان .

- أن القضايا التي أثارها الفلاسفة وعلماء الكلام وأصحاب المذاهب والفرق هي نفسها القضايا التي يثيرها العقل وتشغل التفكير في كل عصر ، لأنها قضايا تتعلق بحرية الإنسان وقدرته على الفعل ، وبنظام الحكم ، والإيمان ، وعلاقة الإنسان بغيره وبالإله الذي يعبده ، ومدى الولاء للمذهب والمعتقد ، وعلاقة الحاكم بالمحكوم ، وهي قضايا بطبيعتها تثير الخلاف في الرأي والفهم لأنها تتعلق بالحكم على سلوك الإنسان ودرجة إيمانه ، والتمييز بين الخير والشر والمؤمن والعاصي .
- أن الملاحدة والزنادقة والمبتدعة والجهلة والغلاة هم الذين يميلون بالطبع إلى التشدد والتطرف ، وهم موجودون في كل عصر وفي كل مذهب وفي كل جماعة وفي كل فرقة بل وفي كل دولة من دول العالم ، وهم في حاجة ماسة للمواجهة المستمرة بالحوار والجدل والحسنى كما أمرنا الله سبحانه وتعالى من أجل تصحيح معتقداتهم الخاطئة التي يظنونها صوابا ، وتصحيح منهجهم في التفكير والبحث ليصح فهمهم وأسلوب تفكيرهم ، ومن أجل ذلك علت صيحات تجديد وتحديث الخطاب السياسي والديني في عصرنا ، مع ملاحظة أن هؤلاء الدعاة لم يبينوا السبيل أو المنهج الذي يجب اتباعه لهذا التجديد أو التحديث ، ولعل هذه الدراسة تكون محاولة جادة لبيان الطريق والمنهج للتحديث والتجديد والتقريب بين الآراء والمذاهب ، وذلك عن طريق معرفة المبادئ والأصول والأهداف التي نادى بها وآمن بها أصحاب المذاهب والفرق الإسلامية والتي يجب مراجعتها وتقدير أسباب وظروف طرحها وأهدافها ، ثم تصحيح الخاطئ منها وتدعيم الصالح والمفيد لعصرنا .

- أن فلاسفة الإسلام وعلماء الكلام وأصحاب المذاهب والفرق يعتمدون منهج واحد وهو الجمع بين العقل والنقل ، ويؤكدون في نفس الوقت على حقيقة التلازم بين الفكر والفعل ، وبين النظروالاعتقاد والعمل ، مما يثبت عمليا أن العقل والنقل كلاهما في حاجة إلى الآخر ولا غنى لأحدهما عن الآخر ، وأن هذا المنهج هو الذي يميز الفكر العربي عن غيره سواء الفكر اليوناني أو الفكر الغربي الحديث ، وقد أكد هذه الحقيقة الغزالي في كتابه الإقتصاد في الاعتقاد حين قال:كيف يهتدي للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر ، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر ، ومثال العقل البصر السليم عن الآفات والآذاء ، ومثال القرآن الشمس المنتشرة الضياء ، فالعقل مع الشرع نور على نور .

من أجل ذلك حاولت جاهدا في هذه الدراسة معاجة أهم القضايا التي عالجها علماء الكلام وأصحاب الفرق مثل قضايا قدم العالم وحدوثه ، والكلام الإلهي وخلق القرآن ، وقضايا الإمامة والقضاء والقدر ومرتكب الكبيرة والولاء والبراء ، وقضية الإيمان والعمل ، وقضايا التأويل والجدل ، على اعتبار أن هذه القضايا كانت من أهم الأسباب التي اختلفت حولها المذاهب والفرق وأنها أكثر القضايا ارتباطا بقضايا التوحيد والإيمان والعمل ، كما حاولت أيضا إبراز أهم المبادئ والأصول الاعتقادية والسياسية التي اعتقدها أصحاب المذاهب والفرق كالخوارج وفرقها ، والشيعة وفرقها ، والمرجئة وفرقها ، والأشعرية وفرقها ، والمعتزلة وفرقها ، والماتريدية وفرقها ، والأباضية وفرقها ، مع عرض لأهم أسباب الخلاف بين هذه الفرق والمذاهب ، وكيف كان المتشددون والغلاة في هذه الفرق سببا أساسيا في تشويه حقيقة المذهب وأصوله وبالتالي تشويه صورة الإسلام ، وذلك لأنهم فهموا جوهر الدين فهما خاطئا .

- أن أصحاب المذاهب والفرق قد أخطأوا خطأ فادحا عندما أخضعوا العقل والنقل لخدمة أغراضهم السياسية ، ومن ثَمَّ تحول الولاء من العقل والنص

إلى الولاء للسلطة والمذهب ، وأصبح التفسير والتبرير والتأويل أداة صاحب كل مذهب أو رأي يخالف به الآخر من جهة ويثبت صحة معتقده ومذهبه من جهة ثانية ، ومع ذلك رأي بعضهم مثل الأشعرية ضرورة التأكيد على محدودية العقل وإثبات أن دور العقل في فهم النصوص والأحكام ليس مطلقا ، وعلى عكس هذا الرأي ذهب المعتزلة إلى إطلاق قدرات العقل وإرادة الإنسان ، مع أن منطق العقل نفسه يحكم بضرورة تلازم الأدلة العقلية والشرعية لأن كلاهما لازم لتحقيق الفهم والتعقل والتدبر وإدراك الحقائق والاقتناع بها قبل الدعوة إليها والتمسك بها ، وفي نفس الوقت فإن الموضوعية واليقين تؤكدان على أن العقل وحده لا يكفي للبرهنة والإقناع لطالب الحق والحقيقة واليقين ، وأن العقل في حاجة إلى إرشاد وتوجيه من الشرع والأحكام الإلهية الثابتة .

- أن حياتنا الثقافية والدينية لازالت حتى الآن في حاجة ماسة إلى مثل هذه الدراسات التي تعالج قضايا الفكر العربي وإشكالية التقدم والتأخر وعلاقة التراث بالمعاصرة ، وعلاقة التخلف والجهل وغياب المنهج ومنطق العقل بوصفها أهم القضايا التي نعاني منها الآن ، وأن علم الكلام بوصفه علم دراسة الفرق والمذاهب الإسلامية يمكن عن طريقه وحده نستطيع بيان علة تعدد الفرق واختلافها وعوامل نشأتها وأسباب غلوها وانحرافها ، ومظاهر التشدد والتطرف في مبادئها ومعتقداتها والأصول التي وضعتها لتميزها عن غيرها من الفرق والمذاهب ، ولهذا فهو من أهم العلوم التي تثبت أصالة الفكر العربي القائم على منطق العقل وأدلة الشرع ، وأنه أكثر العلوم العربية فاعلية وتأثيرا في عالم السياسة والاقتصاد والاجتماع ومواجهة الآخر وادعاءاته الباطلة وهذا ما نراه واضحا وواقعا في حياتنا المعاصرة الآن .
- أن رجال الفكر العربي الأوائل قدموا العديد من العلوم المتميزة والمعبرة عن فكرهم الخاص وحضارتهم والتي تميزت في العديد من الجوانب عن

حضارات الشرق القديم ، وكذلك حضارة بلاد اليونان ، مثل علوم القرآن والحديث وعلوم الدلالة واللغة والنحو ، والنقد الأدبي ، وعلوم الفقه وأصوله ، وعلم المنطق والأخلاق ، والفلسفة ، وعلم الكلام الذي أطلق عليه مسمى العديد من العلوم مثل : علم المذاهب والفرق ، وعلم أصول الدين ، وعلم أصول الفقه ، وعلم الفقه الأكبر ، وعلم التوحيد والصفات ، ويفضل البعض إطلاق اسم الفلسفة الإسلامية على علم الكلام ، ولاشك أن هذه المسميات تعكس بحق الارتباط الوثيق والتواصل بين علم الكلام وغيره من العلوم الإسلامية البارزة والتي كان لها دورها الفاعل في الفكر العربي وفي مقدمتها علم الأخلاق والفلسفة والتصوف وعلوم التفسير والحديث والفقه ، بالإضافة إلى علوم أصول الدين الأخرى .

- أنه بالرغم من تميز علم الكلام عن غيره من العلوم فإن ارتباطه الوثيق بعلوم الشريعة كان ارتباط الأصل بالفرع ، وقد اعترف بذلك الفقهاء قبل الفلاسفة ، ويثبت ذلك محاولات التوفيق بين الفلسفة والدين ، واستعانة فلاسفة الإسلام بالمنهج الكلامي وأدلة المتكلمين في إثبات التقارب بين الفلسفة والدين ، وفي نفس الوقت استعان المتكلمون بمنهج الفلسفة في الاستنباط والتأمل العقلي ومقولات اليقين التي قدمها أرسطو وفلاسفة العرب ، والتي استخدمها علماء الكلام في إثبات العقائد الدينية أثناء مناظراتهم مع المخالفين ، وبالتالي يمكن القول بأن علم الكلام قد نشأ مثل باقي العلوم العربية منذ أواخر القرن الأول الهجري حيث بدأت مرحلة تدوين العلوم ليصبح لكل علم ملامحه المميزة وخصائصه من حيث الموضوع والمنهج والهدف ، وقد تفاوتت هذه العلوم في درجات القرب أو البعد من الفلسفة والدين ، فكان علم الكلام والمنطق وأصول الفقه أكثر العلوم قرباً من الفلسفة ، وكانت علوم الفقه والحديث والقرآن أكثرها ابتعاداً عن الفلسفة .

- أن ملامح علم الكلام وبدايات نشأته الأولى قد تحددت نتيجة المناقشات الأولية والتساؤلات التي طرحها المسلمون الأوائل في أصول العقيدة حول مسائل التوحيد والصفات ، وحقيقة الإيمان بالقضاء والقدر والجزاء والحرية والعدل وغيرها من المسائل التي كانت موضوعاً للبحث الكلامي فيما بعد من جانب أصحاب الفرق والمذاهب الإسلامية ، ومن الملاحظ على آراء أصحاب الفرق من المتكلمين وخاصة في القرون المتأخرة غلبة الطابع الفلسفي والسياسي على آرائهم ومناقشاتهم ، والتي ظهرت قيمتها واضحة من خلال العلاقة الوثيقة بين علم الكلام وغيره من العلوم ، وعلى رأسها علم الأخلاق والسياسة والدين والتصوف والفلسفة والفقه وغيرها .

كما تناولت هذه الدراسة العديد من الموضوعات المهمة المتعلقة بتاريخنا وتراثنا وحضارتنا العربية الإسلامية كمنهجية البحث في علوم الدين وأصوله ، ومفهوم علم الكلام عند الفقهاء والفلاسفة والمتكلمين أنفسهم ، وأسباب ظهور المذاهب والفرق الإسلامية ، ومظاهر الغلو والتشدد في هذه الفرق ، ولماذا تعددت واختلفت حول قضايا الإيمان والخلافة ومرتكب الكبيرة والقضاء والقدر وعلاقة الصفات بالذات الإلهية ، وموقف فرق الشيعة والخوارج والمعتزلة والأشاعرة من هذه القضايا ، ودور علم الكلام وأصحابه من خلال المناظرات الجدلية في نشر حقائق الدين وأصوله والرد على المخالفين ، كما تناولت الدراسة أهم الأصول والمبادئ التي قامت عليها الفرق الكلامية الكبرى كالشيعة والخوارج والمرجئة والأشاعرة والمعتزلة والماتريدية والأباضية ولماذا تفرقت هذه الفرق إلى جماعات وفرق انحرفت عن الأصول في غالب الأحيان وتبنت أفكارا وآراء متعارضة مع أصول المذاهب أو أصول الدين والشرع الحنيف، وكيف كانت هذه المباحث والقضايا تعبر عن العصر الذي نشأت فيه، كما تعبر عن أسباب التدهور والضعف الذي أصاب الحضارة العربية من جراء الخلاف المذهبي والسياسي بين الفرق والمذاهب الإسلامية ، وكيف انعكست

هذه القضايا والخلافات على واقعنا الثقافي والسياسي في العصر الحديث ، وما هو دورنا في البحث عن ما في تراثنا من إيجابيات دافعة للأمام أو سلبيات دافعة إلى الخلف .

والله الموفق والمعين

القاهرة في : ١٤٣٨هـ

الموافق ٢٠١٧م

دكتور

عبد الحميد درويش النساج

obeikandl.com